الفصل الثالث

الحكم الأخلاقيّ — مقياس الحكم الأخلاقيّ — الرأى الشخصيّ — العرف — الوجدان — العقل والاستدلال — تربية الحكم الأخلاقيّ

تصدر من الانسان أحكام كثيرة متنوعة، فاذا قال: «المبتدأ مرفوع» فهذا حكم نحويّ لا أخلاقيّ، واذا قال: «الأجسام تتمدد بالحرارة» فهذا حكم طبيعيّ لا أخلاقيّ، انما الحكم الأخلاقيّ هو أن تحكم على الشيء بأنه خير أو شر، فالصدق خير حكم أخلاقيّ، والكذب شر كذلك.

وقد علمنا مما تقدّم أن الحكم الأخلاقيّ لا يصدر إلا على الأعمال الارادية، فما لم تكن ارادة لا يصدر حكم أخلاقيّ، فلو فاض النيل فأغرق كثيرا من البلدان، أو هبت عاصفة فدمرت بلادا، أو هاجت الأمواج فأغرقت سفنا، لا نحكم على هذه الأعمال بأنها شر، اذ لا ارادة، ولو فاض النيل فى اعتدال فروى الأرض وأفادها، وهبّ نسيم عليل فأزهر النبات وأنعش النفوس

لم نحكم على ذلك بأنه خير، كذلك اذا جمح حصان فأوقع راكبه، أو سار سيرا حسنا فأوصل صاحبه الى غايته لا نحكم على عمله بأنه شر فى الأولى ولا خير فى الثانية ما دمنا لا نعترف للحصان بارادة — وكذلك أعمال الانسان غير الارادية كالتى سبق شرحها.

والآن نريد أن نسأل : قد عرفنا ما نحكم عليه من الأعمال بأنه خير أو شر وما لا نحكم، ولكن اذا أردنا أن نحكم فهل نحكم على العمل باعتبار نتائجه أو باعتبار الغرض الذى أراده العامل من عمله؟ ولتوضيح ذلك نقول :

إن هناك غرضا للعامل من عمله، وهذا يسبق العمل، وهناك نتائج تحصل من العمل وهذه تلحقه، فمثلا قد يقرر جماعة من الأطباء بعد الفحص اجراء عملية لمريض، ثم يتبين بعد اجرائها أن الفكرة كانت خطأ، وانه كان الأولى ألا تعمل، ثم يموت المريض منها، فغرض الأطباء أن يشفى المريض، ولأجل هذا أقدموا على ما عملوا، ولكن النتيجة أنه مات، وهذا الغرض كان قبل العمل، وهو غرض حسن، والنتيجة حصلت بعد العمل، وهى سيئة، فهل نحكم على الأطباء باعتبار غرضهم أو باعتبار نتيجة عملهم؟ وهكذا كثير من الأعمال، كرجال حكومة أعلنوا

الحرب على أمة أخرى لأنهم رأوا خير أمتهم فى ذلك، وقد رأوا قوتهم أكبر من قوة عدوهم، وحسبوا أن ما يغنمون من الفوائد أكبر مما يفقدون من جنودهم وأموالهم، ولكن خاب ما أملوا، فهُزِموا وسُلبوا بعض الولايات، فغرضهم كان الخير لأمتهم، والنتيجة كانت شرًا لها، فعلى أىّ اعتبار نحكم؟ وكذلك العكس، فقد يريد الانسان شرًا ثم تكون النتيجة خيرا، كمن يريد أن يغش آخر فيغريه بشراء شىء يظن فيه الخسارة له، فيغنم الشارى من وراء ذلك ربحا كبيرا، فالغرض شر والنتيجة خير، فهل نحكم على العمل بأنه شرّ تبعا للغرض أو خير تبعا للنتيجة ؟

الحق أن العمل يجب أن يحكم عليه بأنه خير أو شرّ نظرا لغرض العامل منه لا نظرا لنتيجته، فالعمل الذى قصد به الخير خير مهما استتبع من النتائج، والذى أريد به الشرّ شرّ ولو استتبع نتائج حسنة، فقبل الحكم على عمل ينبغى أن نعرف غرض العامل منه — أما العمل فى ذاته من غير نظر الى الغرض منه فليس بخير ولا بشرّ، فلو سألتنى هل إحراق أو راق مالية قيمتها ألف جنيه خير أو شرّ؟ لأجبتك : لا يمكن ذلك حتى أتبين غرض العامل من عمله، فقد يكون شرًا اذا أراد من احراقها الانتقام من مالكها، وقد

يكون خيرا كما اذا قُدمت رشوةً لقاض و رأى القاضى أن لاسبيل الى تأديب الراشى إلا إحراقها .

ولما كان الحكم الأخلاقىّ يعتمد على معرفة غرض العامل من عمله لم يجز لنا أن نصدر الحكم بالخير أو الشرّ إلا على أنفسنا أو على من نتحقق غرضهم من أعمالهم ، إما بأخبارهم ، أو بقيام القرائن على أغراضهم ، فاذا رأينا من انسان عملا فلا نعجل بالحكم عليه ، بل يجب أن نتريث حتى نعرف غرضه منه .

نعم هناك أحكام أخرى نصدرها على العمل باعتبار نتائجه لا باعتبار الغرض منه ، وذلك كالحكم على العمل بأنه نافع أوضارّ ، فإنه انما يصدر باعتبار نتيجته ، والحكم على الشيء بأنه نافع أو ضارّ غير الحكم عليه بأنه خير أو شرّ ، كلاهما ينظر الى الشيء من جهة غير التى ينظر اليها الآخر ، فعمل الأطباء فى المثال السابق خير ضارّ ، خير لأنهم قصدوا الى شفاء المريض ، وضارّ لأن النتيجة كانت وفاته ، وهكذا ، ولكن يجب أن نعلم أن الحكم على الفعل بأنه نافع أو ضارّ تبعا لنتائجه ليس حكما أخلاقيا ، انما الحكم الأخلاقىّ هو الحكم بأنه خير أو شرّ تبعا للغرض منه .

والإنسان لا يلام على عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه ، بشرط أن يكون قد بذل جهده فى معرفة ما ينتج من عمله ،

وإنما يلام اذا كان فى استطاعته أن يرى النتائج اذا دقق فى البحث وأنعم النظر ثم لم يفعل ، فموضع اللوم هو التقصير عند اختيار العمل ، وعدم الدقة فى حساب نتائجه ، وليس موضع اللوم هو ارادة العمل الصالح ، فنى مثل الأطباء السابق لا لوم عليهم اذا كانوا بذلوا أقصى جهدهم فى فحصهم وأتت النتيجة بما ليس فى حسبانهم ، انما يلامون اذا قصروا فى الحكم وبنوا حكمهم على نظر سطحى غير دقيق .

* * *

فى جميع ما تقدم كان الحكم الأخلاقى يصدر على العمل ، ولكن نرى أحيانا أن الحكم الأخلاقى يصدر على العامل ، فيقال : إن فلانا طيب وفلانا خبيث أو أنه خير أو شرير ، فما الذى نلحظه عند حكمنا هذا الحكم ؟

عند ما نحكم على العامل نلاحظ «حاصل الجمع» لما يأتى به من أعمال . فقد عرفنا — قبل — ما هو العمل الخير ، وما هو العمل الشر ، فالآن نذكر لك أن الرجل الخير أو الطيب هو الذى يصدر عنه من الأعمال الخيرة أكثر مما يصدر عنه من الشر ، والرجل الشرير هو الذى يكثر منه صدور الأعمال الشريرة ، ومن هذا نستنتج أن الرجل الخير قد يأتى بعمل شر ولكن يكون الغالب

عليه عمل الخير، لأنا فى حكمنا على العمل إنما نلاحظ الغرض من عمله وفى حكمنا على العامل نلاحظ مجموع أعماله فى حياته .

* * *

ولكن بأىّ مقياس أقيس الشىء فأحكم عليه بالخير أو الشرّ؟ إن الناس كثيرا ما يختلفون فى نظرهم الى الشىء الواحد فمنهم من يراه خيرا ومنهم من يراه شرّا، بل الشخص الواحد قد يرى الشىء خيرا فى آن ثم يراه شرا فى آن آخر ، فما هذا المقياس الذى بمراعاته نصدر هذا الحكم؟ وأىّ شىء يراعيه الناس فيقولون : إنه خير أو شر؟

للاجابة على هذا السؤال نستعرض المقاييس التى يستعملها الناس ، وقد رأى الباحثون أن الحكم الأخلاقىّ تدرّج فى الرقىّ بتدرّج الناس ، فهم فى حالة سذاجتهم ينظرون الى الأشياء و يحكمون عليها بمقياس ، ثم اذا ارتقوا قليلا تغير مقياسهم وحكمهم ، وهكذا حتى يصلوا الى درجة كبيرة من الرقىّ فيسمو كذلك حكمهم الأخلاقىّ ؛ ولنتتبع الآن الأدوار التى مرّ بها الناس .

العـــرف — فأول دور سلكوه فى معرفة الخير والشرّ « العـرف » — ونعنى بالعرف « عادة الأمة » فاذا اعتادت أمّة عملا وكان فاشيا فيهم فذلك عرف ، فزيارة القبور فى الأعيا دعادة

للمصريين، فهذا عرف، وعادة كل أمة فى ملبسها ونظام معيشتها ونحو ذلك يسمى عرفا .

ولكل أمة عرف خاص تعـد خيرها فى أتباعه ، وتؤدب الأطفال به ، وتشعرهم بأن فيـه شيئا من التقديس ، واذا خالفه أحد استهجنت عمله وعدته خروجا عليها ، فمن الصعب الخروج على المألوف من عرف فى الملبس والمأكل ونظام الأفراح والمآتم وطرق التحية ونحو ذلك .

والناس منساقون الى تنفيذ ما يقضى به العرف، وذلك بتأثير الرأى العام، فالناس — عادة — يمدحون متبعى العرف، ويَسْخَرون من مخالفه ، فلو خرج أحد على عادة الأمة فى زيها أو أفراحها ومآتمها أو طرق تحياتها كان موضعا للنقد القاسى .

وفى أيام سذاجة الناس و بداوتهم لم يكن لهم مقياس يقيسون به العمل إلا العرف، فهم يحكمون على العمل بأنه خير لموافقته للعرف وشر لمخالفته له ، ولا يزال كثير من الناس فى كل أمة مهما بلغت من الحضـارة يعملون ما يعملون لا لسبب إلا أنه يتفق وعادات قومهم، ويجتنبون ما يجتنبون لأن قومهم لا يعملون — فمقياس الخير والشر فى نظرهم هو العرف، وبه يصدرون أحكامهم على الأشياء.

فلما ارتقى الناس تبين لهم أن العرف لا يصح أن يتخذ مقياسا، فبعض أوامره غير معقول، و بعضها ضار — فوأد البنات كان عرفا لبعض قبائل العرب فى الجاهلية ، وهو عرف ضار نهاهم الاسلام عنه وأبان ما فيه من خطأ، وعند الرومان كان الأب له الحق فى إماتة أولاده و إحيائهم، والرق مع ما كان فيه من معاملة قاسية كان فاشيا فى كثير من الأمم،وعادات المصريين فى أفراحهم ومآتمهم عرف ضار وهكذا .

واذا كان العرف قد يخطئ و يبين الخلف سوء ما كان عليه السلف لم يصح أن يكون مقياسا صحيحا نقيس به الأعمال فنحكم عليها بالخير أو الشر .

ولو أن الناس جروا على مبدأ العرف لم يتقدم العالم عما كان عليه من قديم ، لأنه إنما يتقدم بأولئك الذين يرون خطأ العرف فيجاهرون بمخالفته، و يدعون قومهم للخروج عليه، فيلتف حولهم كثير من الناس ، و يأخذ رأيهم فى الانتشار حتى يحل الجديد الحق محل القديم الخطأ .

ومع هذا فان جَرىَ الناس على هذا المقياس كان له بعض الفائدة ، فقد حمل كثيرا أن يأتوا بالعادات الصالحة و يمتنعوا عن السيئة جريا مع العرف و رجاء لمدح الناس وخوفا من ذمهم .

* * *

الرأى الشخصىّ — يلاحظ الذين يدرسون القبائل فى حالتها الأولى من البداوة أن الفرد من القبيلة لا يحس احساسا قويا أنه فرد مستقل بذاته ، وانما يغلب عليه الاحساس بأنه جزء من قبيلة ، يحيا بحياتها ويموت بموتها ، ويظهر هذا ظهورا بيّنًا حين تقرأ الشعر الجاهلىّ فترى فيه أن شخصية الشاعر اندمجت فى قبيلته حتى كأنه لم يشعرلنفسه بوجود خاص ، وتتبين ذلك بجلاء فى معلقة عمرو بن كلثوم — وقلّ أن تعثر على شعر من أشعار الجاهلية ظهرت فيه شخصية الشاعر ، ووصف مايشعر به وجدانه ، انما هو كثير التحدّث عن قبيلته وأخبارها وأفعالها .

وفى هذا الدور لا يكون للأخلاق مقياس إلا العرف ، فليس للفرد رأى شخصىّ يقوّم به الشىء ليحكم عليه بأنه خير أو شرّ بل ليس له إلا أن يستحسن ما استحسن قومه ويستقبح ما استقبحوا ، فهو لا يأتى بعمل أو يتجنب عملا بناء على تفكير منه ووزن له ، بل لأن قومه يأتونه أو يجتنبونه .

فاذا ارتقى الناس عن هذا الدور شعر الفرد بأنه — وان كان عضوا فى مجتمع — فله شخصيته ، وان نفسه مستقلة عن قومه ،

وأن له مصالح شخصية كما أن لقومه مصالح ، وان عقله من الاستقلال بحيث يستطيع ألا يخضع للعرف خضوعا أعمى ، بل فى قدرته أن يزن الأعمال فيحكم عليها بالخير أو الشر وان خالف العرف .

نرى هذا فى التاريخ دائما ، فعند نهوض كل قوم وأخذهم بحظ كبير من الرقى يظهر أفراد يخرجون على التقاليد الموروثة المتعارفة اذا رأوها ضارة ، و يزنون الأشياء و زنا جديدا ، فيعلنون استحسانهم لأشياء يستهجنها عرفهم ، و يستقبحون أشياء يستحسنها العرف ؛ و ينتشر رأيهم شيئا فشيئا حتى يميل الناس اليه ، و يقتنعوا به ، وبهذا تنكسر قوة العرف — حصل هذا فى عصر السوفسطائيين فى اليونان ، و فى عصر النهضة فى روما ، وفى أيام الثورة الفرنسية فى فرنسا وهكذا .

فى هذا الدور يشعر الانسان أن العرف غير صالح لأن يكون مقياسا ، وان له من القوة ما يمكنه من تقويم الأشياء والحكم عليها ، ولكن يتساءل بم يقومها ؟ كيف يعرف الخير والشر؟ ما الذى يضعه محل العرف ليعرف الحق من الباطل؟ وعند ذاك يأتى دور البحث العلمى .

الوجدان — أجاب قوم عن هذه الأسئلة المتقدمة بأن فى كل انسان قوة غريزية يميز بها بين الحق والباطل، فكل انسان اذا عُرض عليه عمل تلهمه هذه القوة انه خير أو شر، وهذه القوة مُنِحناها لنميز بها بين الخير والشر كما منحنا العين لنبصر بها، والأذن لنسمع بها، والحكم الأخلاقى يعتمد على هذه القوة فيَصْدُرُ بالاستحسان أو الاستقباح، وقد ذهب بعض العلماء الى أن أساس هذا الحكم هو "الوجدان" ويعنون به شعور الانسان الطبيعى بالارتياح من العمل أو النفور منه كالارتياح والنفور الذى يشعر به الانسان عند رؤيته شيئا جميلا أو قبيحا، فعند ما توسوس له نفسه بكذب أو بسرقة يشعر باشمئزاز طبيعىّ من إتيان ذلك فيحكم عليه بأنه شرّ، وكذلك عند ما يسمع خبرا باغاثة ملهوف أو إحسان الى فقير أو عدل فى حكم يشعر بارتياح طبيعىّ فيحكم على ذلك بأنه خير.

وقد تصاب هذه القوة الوجدانية بمرض فترى الخير شرا والشرّ خيرا كما تصاب كل حاسة بالمرض، وكما تخطئ القوة العقلية، فكما أنا لو أعطينا عددا من التلاميذ مسائل حسابية فبعضهم يخطئ فى حلها وبعضهم يصيب ولكنا نعرف أن هؤلاء أصابوا وهؤلاء أخطؤا كذلك يختلف الناس فى صحة الوجدان ومرضه،

فبعضهم يحكم بالشرّ على ما يحكم عليه الآخر بالخير، ويمكن أن نعرف المخطئ من المصيب، وسيأتى توضيح ذلك عند الكلام على مذهب اللَّقانة.

العقل والاستدلال — ويرى علماء آخرون أن ليس فى الانسان قوة طبيعية يحكم بها على الأعمال، إنما نحكم عليها بالعقل والاستدلال، فليس فى الانسان حاسة غريزية يدرك بها الخير والشرّ، ولكن يحكم عليها بمقتضى تجاربه، فالناس عملوا أعمالا، ولاحظوا ما ينتج عنها، فرأوا نتائجها حسنة فحكموا بخيريتها، وعملوا أعمالا رأوا نتائجها سيئة فحكموا عليها بالشرّ، وليست القوة الأخلاقية التى نعرف بها الخير والشرّ إلا عقلنا وتجاربنا، واستمرار الأمة فى تجاربها يفضى بها الى تعديل آرائها فى الأشياء، والسبب فى تغير آراء الأمم والأفراد فى الحكم على الأشياء هو اتساع مداركها بكثرة تجاربها وملاحظاتها واستدلالها، وسيتضح ذلك عند الكلام على المذاهب الأخلاقية.

من هذا ترى أن الحكم الأخلاقى تدرّج بتدرّج الناس فى الرقّ، فكانوا أول أمرهم لا مقياس لهم إلا العرف ثم فهموا أن العرف لا يصح أن يكون مقياسا، فجاء بعد ذلك دور البحث والتفكير العلمىّ.

وكذلك ترى أن العرف — أولا — كان هو المقياس ولكنه مقياس خاص بالأمة وحدها ، اذ كل أمة لها عرفها ، فلما جاء دور البحث العلمى أصبح الحكم الأخلاقى ينبنى على أسس عالمية ، وبعبارة أخرى أصبح ينبنى على مبادئ عامة تصلح لكل أمة فى كل عصر، وسنوضح تلك المبادئ والمذاهب المشهورة التى أدى اليها البحث فى الفصل التالى .

تربية الحكم الأخلاقى — قوة الحكم الأخلاقى ترقى برقى الانسان ، فهو يولد وعنده جرثومة الحكم الأخلاقى، تولد معه حسب قانون الوراثة .

ثم ينشأ فى أسرته فيراهم يمدحون أشياء ويذمون أخرى ويكافئون على أعمال ويعاقبون على أخرى ، فينمو عنده الحكم الأخلاقى بذلك ، ويتبع أسرته فى مدحها وذمها ، ويستحسن من الأشياء ما مدح عليه ، ويستهجن ما ذم من أجله ، ثم اذا نما شعر بأنه مضطر أن يتبادل مع اخوته واخواته الأخذ والعطاء، فيوجد عنده الشعور بضرورة تبادل المنافع ، فهو يعطيهم مما يناله ليعطوه مما ينالون ، فيرقى عنده بذلك الحكم الأخلاقى .

فاذا خرج الى العالم وتبادل مع الناس المعاملة ورأى حاجته الى معونتهم وأدرك أنه لا يعيش سعيدا بينهم إلا بمراعاة قوانين

وتقاليد اتسع عنده مجال الحكم الأخلاقى ، فاذا هو تقدّم فى العلم ساعده علمه على إضاءة السبيل له ليميز بين الحق والباطل ، فكثير من الأعمال الضارة أو الخرافية سببه الجهل بالقوانين الطبيعية ، فاستقبال العامة للخسوف والكسوف بالضرب على الأوانى النحاسية أو الحديدية مثلا سببه الجهل بأسباب الخسوف والكسوف ، ومعرفتنا بشىء من الجغرافيا الطبيعية أو الهيئة يبين أن هذا العمل وأمثاله خرافة لا أساس لها ، ومعرفتنا بشىء من قوانين الصحة يغير نظرنا الى كثير من الأعمال ، وانتشار العلم عن النبات والحيوان والمرض والصحة فى أية أمة يجعل كثيرا من أفرادها يخرجون على العرف المألوف الذى لايتفق ونظريات العلوم ، والعلم يزيد الانسان شعورا بشخصيته و بأن له قوة على الحكم على الأشياء ، وأنه ليس أسيرا للعرف والتقاليد .

كذلك دراسة علم الأخلاق ، واستعراض النظريات التى ينبنى عليها الحكم الأخلاقى ، ونقدها ، وبيان ما يصح منها وما لا يصح ، وبيان ما كان الناس عليه أيام بداوتهم فى عرفهم وتقاليدهم ، وكيف كانوا يحكمون على الأشياء ، وما وصلوا إليه من الرقى ، وكيف تغير نظرهم الى الأشياء برقيهم . كل هذا يجعل الانسان أصح حكما وأصدق نظرا .